

رُوحِ المَقَامِرةِ وَالْمَنَاجِمِ

تفسد عاطفة الخير والواجب في الجمهور

بقلم الأستاذ م. ق.

نحن أمة من المقامرين في هذه الأيام .

تلك تهمة غليظة ولا شك ، ولكننا في حاجة إلى أن نسمع الكثير من مثل هذا الاتهام الفليظ ، وأن نجبه به في عنف وقسوة ، وبلا مداراة ولا ترفق . وقد يكون من الخير في بعض الأحيان أن تقدم الدواء للريض في "برشامة" ولكن من الخير في أحيان أخرى أن نجرعه له في غلظة وصراحة .

نحن جميعا نقامر في هذه الأيام ، مقامرة مباشرة أو غير مباشرة : فإذا نحن ترفقنا قليلا في الوصف ، قلنا : إننا نتاجر ولا نعمل شيئا إلا أن نقصد من ورائه ما يقصد المقامر أو المناجر .

فأما المقامرة المباشرة فتجلى في ملاعب القمار المنتشرة في أنحاء البلاد على الرغم من القوانين كما تجلى في ميادين السباق ، وهي مع الأسمف تجذب جميع الطبقات في مصر على السواء وبخاصة طبقة "أبناء الذوات" كما أن هناك مقامرة متقلبة يطوف بها بعض الباعة على المفاهي ومعهم السجائر والماسجوج والفسستق وآلة "روليت أنوما-يكية" أولعبة "جوز وفرد" . وبلا كبير تردد يمكن أن نضيف إلى المقامرين طبقة العاكفين على شراء أوراق النسيب يتفنون من ورائها الغنى المهاجج والثروة الطارئة بلا كد ولا جهد .

وروح المقامرة روح خبيثة ، فهي في صميمها ترمي إلى كسب الثروة من غير طريقها ، وبلا جهد يبذل في تحقيقها ، وتفشى هذه الروح يعني الانحراف في التفكير والانحراف في الاتجاه العملي . فالشاب الذي يبدأ حياته معتمدا على ثروة تهبط عليه من السماء في صورة ورقة نصيب واجحة ، أو رهان كاسب على جواد ، أولعبة ناجحة على مائدة ، هذا الشاب لن يسلك الطريق القويم في التفكير المنمّر ، ولن يكلف نفسه مشاق الجهد في العمل المنتج بل سيعيش باحثا عن الكثر الذي تحبته له الأيام ، كما يعيش الباحث عن الثروة في الأحلام !

والتفكير على هذا النحو تفكير مريض يقتل في النفس الطموح الحقيقي ، الذي يقوم على انتقاد الشاب أنه يستطيع النجاح بالعمل وإبراز مواهبه الكامنة ، ونفس المقامر من أشد النفوس قلقا واضطرابا وفسادا ، لأنها متأرجحة في كل وقت فوق عوامل لا تملك تصرفها

ولا يد فيها لغير القدر المجهول الذى يترقبه المقامر خائفا وجلا ، كأنما ينتظر الحكم فى كل لحظة بالإعدام أو البراءة . وهذه حالة تهد أسس الأخلاق والعزائم وتحميل الإنسان ريشة طائرة فى مهب الرياح .

وقد أسلفت أن العكوف على ثمرات أوراق النصيب ابتغاء الربح المفاجئ نوع من المقامر له جميع عيوبها . فالآن أذكر أن له عيبا خاصا به بعد هذه العيوب كلها . ذلك أنه يعطل ماطفة الخير فى نفس الجمهور ، الذى يمتاد ألا يتبرع للمؤسسات الخيرية التى يشفق عليها من ربح هذه الأوراق إلا إذا طمع فى الربح الوفير .

وصحيح أن هذه الأوراق تزيد دخل هذه المؤسسات ذلك الدخل الذى هى فى أمس الحاجة إليه ، والذى لولاه ما قامت ولا عاشت . وهذه وجهة نظر ، ولكن هناك وجهة نظر أخرى ، إذ نحن نحبي هذه المؤسسات لانتل عاطفة الخير فى الناس ، ونقيم أسعما على رفات العطف الإنسانى . ولا أتردد فى القول بأن بناء النفوس على أسس قويمه خير من إقامة المؤسسات على دعائم متينة !

وقد يكون ما أرمى إليه مثلا أعلى صعب التحقيق ، ولكن المثل العليا دائما تستطيع أن تقودنا إلى منتصف الطريق .

أما الواقع والواقع وحده فيقف بنا عند أول الطريق !



ودناك غير المقامرة الصريحة ، مقامرة ضمنية أو متاجرة فى أخف التعبيرات .

فقد ندفع أحيانا إلى التبرع بمبلغ من المال لإحدى المؤسسات أو المشروعات ، عن طريق غير طريق أوراق النصيب ، أو نتطوع للخدمة العامة فى ناحية من نواحيها . ولكننا لا نتبرع أو نتطوع تلبية لصوت الواجب والضمير ، ولا تحقيقا لعاطفة الخير أو عاطفة التضامن الاجتماعى ، إنما نحن نطلب الثمن أضعافا مضاعفة ، وأقل أنواع الأثمان التى نطلبها هو نشر أسمائنا فى الصحف ، وتوجيه قصائد المدح والثناء إلينا ، إن لم نطمح إلى رتبة أو منصب أو صفة من الصفقات على حساب التبرع الخيرى البرى أو الجهد السياسى أو الاجتماعى العام .

ويندر أن نسمع عن التبرعات المجهولة ، و " فاعل خير " لا يزال أقل الأسماء ورودا فى قوائم التبرعات والتطوعات ، بل نحن نكشف أنفسنا كشفا لا مواربة فيه ، إذ نصصح فى اليوم التالى كل تحريف فى أسمائنا يقع فى الصحف حين نتبرع بشجرة قروش مثلا لأمره بأسة ! ، كما يندر التبرع لمشروعات لا يسندها أصحاب النفوذ .

ونسمع بين الفينة والفينة أن "فاعل خير" في أوروبا أو أمريكا تبرع ببضعة ملايين من الجنيهات لأمنته . ولا يبعد أن يسخر الكثيرون منا من هذا "المبیط" الذى يتنازل عن كل هذه الثروة بلا مقابل !

ذلك أننا لم نتعود بعد لذة الإحسان ولذة الكتمان ، وهذه الأخيرة لذة مضاعفة منشؤها شعور الإنسان بالسمو على المظاهر الكاذبة ، وراحة ضميره إلى أنه يؤدي الواجب بدافع من وجدانه لا ينتظر عليه جزاء ولا شكورا ، وهى لذة عالية أين منها لذة الشهرة ولذة المنصب ولذة المكافأة أيا كان نوع هذه المكافأة .

ونحن لانطلب من المتبرعين والمتطوعين فينا أن يرتقوا إلى هذه الذروة ، فورا ذلك تربية شخصية واجتماعية نحن بعيدون عنها كل البعد ، وورا ذلك نفوس عظيمة نحن لانطمع الآن فى التساق إلى مستواها ، ولكننا نتواضع ونتواضع فنطلب منهم أن يقتصدوا فى تطلب الجزاء العاجل والمكافأة المباشرة ، فإن بعضهم ليفال فى ذلك حتى ليفاوض مبدئيا فيما سينال من جزاء على الترع أو التطوع ، ويمسب حساب الریح والخسارة قبل أن يمديه بقرش أو خدمة . وقد قرأت فى إحدى المجلات أن صاحب مقهى بلدى تبرع لمشروع الحفاء بعشرة قروش فأرسل دولة رئيس الوزراء يشكره على هذه الأريحية بالقياس إلى ثروته . وبعد أيام تلقى دولته رسالة خاصة من هذا "المعلم" يطلب فيها قرضا قيمته جنيه واحد !

وسواء صح هذا الخبر أم كان دما بة صحفية ، فللرجل عذره فى هذا وهو يرى كبار الأغنياء المتبرعين للشروعات الخيرية يقبضون ثمن التبرع مضاعفا ، فلم يزد هو على طاب سلفة قد يكون فى نيته ردها بعد ميسرة !



على أن هناك نوعا من المقامرة أو المتاجرة أخطر من هذه جميعا ، مقامرة قد لا يخطر على بال الكثيرين وجودها . تلك هى مقامرة الموظفين فى أعمالهم الحكومية .

مفروض أن الموظف يتسلم مرتبه فى نهاية كل شهر جزاء على جهده فى العمل ، ومفروض أنه يؤدي عمله أحسن أداء لأنه واجب لا شكر عليه ، وجزاؤه هو مرتبه الذى تؤديه له الدولة ودافعو الضرائب .

ولكن الآيه انمكست ، فما من إحسان فى العمل إلا ليراه الرئيس ويلتفت إليه ، ويشيب صاحبه عليه بالترقية والدرجة ، فإن لم يكن من طبيعة هذا العمل أن يلفت نظر الرؤساء ، فلا إجادة فيه ولا أمانة لأن الجزاء عليه غير مضمون .

هذه روح خطرة ، لأن هناك مئات الأعمال ليس فى طبيعتها الضجيج والبريق ، وليس فيها ما يلفت النظر وإن توقفت عليها أعمال كبيرة من أعمال الدولة ، بل أيسر عليم رقابة

ولا تصل إليها عين الرؤساء ، فالضمير والوجدان الفردي هما الرقيبان وحدهما على حسن أدائها ، فإذا تفتت روح المقاومة هذه في نفوس الموظفين القائمين عليها لم يعد هناك من ضمان في القيام بها .

وقد يكون للحسوبة والوساطة التي تفتت في الدواوين يد في بث هذه الروح الخبيثة . وذلك أن كثيرا من الموظفين الأسماء المجددين أهملوا ونسوا ، بينما غيرهم ممن هم ذويهم كفاءة وأقدمية قفزوا على السلم درجات درجات ، فلم يبق إذن تارقي إلا وسيلتان : المحسوبة والوساطة ، أو الإعلان والضحجيج . أما أداء الواجب وإتقانه فلم يعد لهما أى تقدير .

ولقد زاد هذه الروح قوة أن معظم المشتغلين بالأعمال العامة وكثيرا من الزعماء السياسيين ، قد تناضوا ممن تضحياتهم مقامهم وأسلابا مضاعفة ، وأن المصنفين المهرجين هم الذين نالوا كل شيء . بينما المضحون الصامتون لم يعرفهم أحد .



ونحن في حاجة إلى مقاومة هذه الآفة الروحية في كل مكان . ومقومتها يجب أن تسير متناسقة الخطوات في المنزل والمدرسة والجمع والديوان ، وأن يشارك في كفاحها الآباء والمدرسون والرؤساء والزعماء .

فيجب أن نغني عاطفة الخير والواجب في نفوس الأطفال سواء في المدرسة أو البيت فنقل من المكافآت المادية التي تمنحها لهم في نظير قيامهم بواجباتهم المنزلية والمدرسية ولا تقدم هذه المكافأة إلا على عمل بارز جدا خارج عن دائرة ما يجب عليهم أدائه في المادة .

فنادية الواجب المدرسي والنجاح في الامتحان مثلا عملان طبيعيان لا يستحقان أية جائزة ولكن التفوق الواضح يستحق كلمة ثناء ، أما الجائزة فيجب أن تحتفظ بها لعمل خارق كأن يأتي بفكرة مبتكرة في عمل مدرسي أو عائلي أو اجتماعي ، وحينئذ تكون لها قيمتها وتكون تشجيعا بارزا .

ويجب أن نبث الدعاية المقنعة للتبرعين والمتطوعين بأن تبرعهم وتطوعهم واجب شخصي أو اجتماعي ينبغي لقيام به دون انتظار الثمرة وأثناء ، وإن كانت أشهرة والثناء سيجيئان بطبيعتهما وبدون انتظار ، ولكن المعول عليه هو الخافز النفسى الذى يجب أن يكون وحده كافيا للعمل الطيب والخدمة الاجتماعية ، ومن المهم أن نتعود العمل الصامت ، ولوتبهاات لنا وسائل الإعلان .

ويجب أن نغذى روح الأمانة في العمل وتأدية الواجب في كل دوائر الأعمال بقطع دابر المحسوبية ، وكشف حيل المهرجين من المعلنين عن أنفسهم في الديوان .

وقد قلنا : إن انتشار روح الوساطة والمحسوبية في الدواوين كان سببا من أسباب إعلان بعض الموظفين عن أنفسهم وعن أعمالهم ليلفتوا إليهم الأنظار فينالوا الترقيات والدرجات .

فلعل إنشاء مجلس الدولة الذي سيكون عاملا من عوامل الاطمئنان إلى أن ينال كل ذي حق حقه ، وأن تنفى — إلى حد كبير — الترقيات الاستثنائية والعقوبات الشخصية الانتقامية بسبب رقبته .

لعل لإنشاء هذا المجلس يقاوم روح المقامرة والمتاجرة بالأعمال الحكومية ، التي ينبغي أن يكون الحافز إلى اتقانها هو الشعور بالواجب للوطن وللامة التي تؤدي المرتبات .

ويجب أن يقتصد الزعماء والمستغلون بالشؤون العامة في استغلال تضحياتهم ومجهوداتهم سواء كان ذلك لهم أو لأقربائهم ومحامديهم ، فإن هذا الاستغلال كفيلا بأن يقتل في نفوس الجماهير كل إحساس كريم بالتضحية و كل شعور نبيل بالجهاد الوطني أو الاجتماعي ، ويحيل المسألة كلها مقامرة أو متاجرة ، وليس أخطر على الشعوب من أن يكون للتضحية ثمن على هذا النحو ، و ثمن غير متكافئ معها ولا معقول .

إن المنفعة الصغيرة التي ينالها المتبرع لعمل الخير ، أو المجاهد في سبيل الوطن ، أو القائم بعمل اجتماعي ، لا تساوي ذلك الأثر السيئ الذي تخلفه في نفوس الشبان بوجه خاص ، هذه النفوس التي يجب أن تبقى على استعداد للتضحية بلا ثمن ، والبذل بلا مقابل ، وإلا كان تقاعسها نذيرا للجتمع بالانحلال .

أما المقامرة الصريحة التي تحدث عنها في أول المقال ، فلست في حاجة إلى التذليل على وجوب القضاء عليها ، مهما اتسمت بسمرة الرياضة كسباق الخيل ، أو سمرة البر كأوراق النصيب . فلكل سموم تسمى بغير أسمائها وتردى غير رداؤها ، ولكن هذا لا ينبغي أنها سموم من أفلك أنواع السموم ما

س . ق

وينحسون بالشكر . . .

وكان في مقدمة المشيعين . . .

مناسبة الموت أولى المناسبات بالجلال والوقار ، وأحقها بالخشوع والسكون ، وأبعدها عن التظاهر والتصنع ، وانفس التي لا تحس هذه المعاني كلها في الموت غير جدية بأن تحس شيئاً في الحياة .

إلا أننا اعتدنا في مصر أن نتخذ من الموت فرصة للإعلان عن الأحياء في مظهر يشبه التهریح إن لم يكن هو التهریح نفسه ؛ وهذه العبارات المحفوظة التي لا يكاد يخلو منها إعلان وفاة أو تشييع جنازة أو شكر على الاشتراك في التعزية ، هذه العبارات المحفوظة المشهورة هي دليل لا يكذب على أن نفوسنا لا تقدر للموت حرمة ، ولا تستشعر الجلال الذي تستحقه هذه المناسبة .

كقولهم: "وكان في مقدمة المشيعين . . . فلان . . . وفلان" أو "ينحسون بالشكر . . . فلانا . . . وفلانا" .

وأولئك الذين كانوا في مقدمة المشيعين ، يذكرون لمناصبهم ومراكرهم على سبيل الافتخار والمباهاة ، وإلا فليس الموت وليست المواساة فيه بالمناسبة الصالحة لذكر الأسماء .

وهؤلاء الذين ينحسون بالشكر ، قد لا يكونون ممن شيعوا الجنازة ولا ممن حضروا المآتم ، وإنما أرسلوا برقية تعزية أو مندوباً عنهم بينا الكثيرون من أصدقاء الأسرة وعارفيها سعوا إلى المقبرة ثم شاركوا في ليلة المآتم ، ولكن لم ينلهم حظ الاختصاص بالشكر لأنهم ليسوا من ذوى الألقاب الضخمة ولا المراكز الكبيرة ، وكذلك قد تكون هناك شخصيتان من مقام واحد ومركز واحد فنخص بالشكر أحدهما ونهمل الأخرى بسبب حزبي أو شخصي !

وأقل ما يقال في مثل هذا التصرف أنه "جليطة" وقلة ذوق ، وأنه استهانة بعواطف الناس وأقدارهم من لا ينحسون بالشكر ولا يشار إليهم بكثير ولا قليل مع أنهم قد يكونون أصدق المعزين والمشيعين شعوراً بالفتجيمة لأنهم إنما سعوا بالعزاء والمشاركة لعلاقة تربطهم بالفقيد أو أحد أفراد أسرته ، بينا أولئك المنحصوصون بالشكر ؛ بعثوا ببرقياتهم لمجرد أداء الواجب لظاهري أو "سد خاتمة" كما يقولون .

وقد جرت العادة أن يرد أهل الميت بريقة أو بطاقة شكر على من يعزونهم بالمراسلة ، أما من يكتنون أنفسهم مشقة السعي بالنهار في تشييع الجنازة ، وبالليل للجلوس في السرادق فلا يجدون من يسأل عنهم بالرد .

ووضح أن الأولين لم يتكلفوا شيئا مما تكلفه الآخرون ، وأن هذه البريقة بالغة ما بلغت قيمتها لاتبلغ في حسن العزاء مبلغ من يحضر بذاته ليشارك ويرفه ويمسح ويمسح ويغزى مدفوعا بعطفة أو قرابة .

فيجب أن نعرف للناس جميعا فضلهم في مشاركتنا مصائبنا وألا تكون الأقدار والمراكز سببا في غبن طائفة والإشادة بطائفة لمجرد المباهاة والإعلان .

على أنه يبقى بعد ذلك أن ننظر في التقاليد المحيطة بالميت كلها — هذه التقاليد التي لامناص من تعبير فيها أو تهذيب ، يبعد عنها كل عناصر الإعلان ويجعلها خالصة لإدخال العزاء الحقيقي على القلوب وللوقار المناسب لجلال الموت .

فالدبائح التي تتحرر، والمآذب التي تقام والسرادقات التي تنصب وحملتها القمام ، والمواكب التي تطوف الشوارع والطرقات ، وفرق الموسيقى المحزنة والاعلانات عن الوفاة وعن تشييع الجنازة عن شكر ونشر الأسماء ثم إعادة نشرها مصححة أو وقع أقل خطأ فيها أو تحريف إلى تحريف هذه المظاهرات الجوفاء يجب أن تختفي من المآتم وأن يحل محلها الهدوء والعبارة ، والاكتفاء بسعي الأقارب إلى أقاربهم والأصدقاء إلى أصدقائهم للعزاء الحقيقي والمشاركة الصادقة فقد يصلح كل شيء للضحيج والإعلان إلا الموت فهو لن يصلح لغير السكون والجلال

ويكفي أن نعيش في عالم مزيف في كل شيء من مظاهره ، وفي ثقافتنا اجتماعي دائم في كل أعمالنا ، فلا نزيغ العواطف أيضا ، وبخاصة عاطفة الحزن العزيرة الجلييلة ، التي ينبغي أن مخلوفا فيها لأنفسنا وأقاربنا وأصدقائنا وأن ننمى لديها الأعراض الرائلة والمظاهر الكاذبة وأن نعيش بعض المحطات صادقين في شعورنا تعويضا عن الكذب المتواصل فيها وعن التفاف الذي لانجد أنفسنا في عماره إلا نادرا .

ارى في جلال موت ن كان صادقا
ولا تحسن الموت حجة كاذب
جلالة حق لا حلاله باطل
لمدحه مذموم ورفعة سافل

شاعر حديث